الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

درس فى الأخلاق — الكتاب الأسود — زكى مبارك
كما يراه عباس العقاد — الطبعة المصرية — الترجمة عمل مطلوب ومفيد ، ولكنها لا تدل على الأصالة الذاتية

درس فى الأخلاق

صديقى ...

أوجه إليك هذه الكلمة ، وأنا أرجو أن تقرأها فيما بينك وبين نفسك ، بلا تفكير فى التعقيب ، لأنى لن أستمع لك إن قابلتها بأى اعتراض ، فما يتسع وقتى للمجادلة فى أمور صارت عندى من البديهيات

وأسارع فأقرر أنى لا أقيم وزناً للتشكى من الزمان ، على نحو ما يصنع بعض الشعراء ، وعلى نحو ما كنا نصنع يوم كنا نتوهم أن الحظوظ تقسم بلا ميزان

أنا اليوم أومن بأن لله قانوناً اسمه النظام ، وهو يطرد فى جميع الشؤون ، فالشمس بنظام ، والقمر بنظام ، وجميع الخلائق بنظام يفسده أقل اختلال

لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا وفقاً لقوانين أزلية لا يجوز عليها الانحراف

السيد سيدٌ بحق ، والعبد عبدٌ بحق ... ولو حل المرءُ روح الأسد لصاوله فى حومة الصراع بلا تهيب ولا إشفاق

نحن المسئولون عن تخلفنا حين نتخلف ، لأن فى مقدورنا أن نصل إلى أعظم مكانة إن تحلينا بالصدق فى الجهاد ، ولأن فى استطاعتنا أن نكون عظماء يشغلون التاريخ ، إن ناضلنا فى سبيل المجد نضالاً يقرع سمع التاريخ

وهذا لا يتيسر إلا إن راعينا نظام الوجود

ذلك السائل لا يستحق غير ذل السؤال ، لأنه يخمد قواه عن عمد ليظفر بالصدقات العجاف

وذلك البليد الذى رضى أن يكون طول عمره من الذيول سيظل ذيلاً لأنه بليد ... وذلك التابع السخيف لمتبوعين سخفاء لن يصلح لشىء ، لأنه يستظل بأموات يعيشون فى ظلال الأموات ... وذلك الذى يتهنس بفضل حماية غيره لن يرتفع بأى حال ، وإن استعان بطنين الذباب

لك ما تريد لنفسك ، على شرط أن تفهم تلك القوانين الأزلية فتجاهد فى حدود الصدق جهاد الرجال

لك ما تريد لنفسك ، على شرط أن تترك الأوهام التى تزعم أن الرجل لا ينجح إلا إن صادفته فرصة تنقله من حال إلى أحوال

الفرصة فى يدك إن أردت ، ولكن متى تريد ؟

أنت لغفلتك تتوهم أن الذين سبقوك إلى المال أو الجاه لم يسبقوك إلا بفضل الفرص التى سنحت على غير ميعاد

الفرصة فى يدك ، وميعادها بيدك ، على شرط أن تكون رجلاً لا يجوز عنه الاستغناء

زوّد نفسك بالمزايا التى ترفعك ، واقض ليلك ونهارك فى كسب الخصائص التى تجعلك من أهل التفوق ، وإن استطعت أن تكون الرجل الأول فى المذهب الذى اخترته لنفسك فلن تشكو النبن ولو قامت فى طريقك ألوف وألوف من الأشواك

الرجل الذى يستطيع أعداؤه وحاسدوه أن يهدموه ليس بالرجل العظيم ، وإنما هو وليد ظروف ومصادفات جعلته شبحاً يوهم من يراه أنه شخص من الأشخاص ، وما أويد لك هذا الحظ الضئيل

المناسبة العارضة أو على حسب قانون العرض والطلب الذى يتحدث به الاقتصاديون . ويغلب الهوان على الفتاة فى المعترك الحاضر لأنها هى التى كانت مطلوبة فأصبحت معروضة أو طالبة فأصابها الرخص والهوان من طريق الحرية ، وهو ما عنيناه بالذلة فى طريق مشيتها بعد الذلة التى أصابتها قديماً من فقد المشيئة . فإذا وقع الفتى فى قيد الزواج فإنه ليشكو من زواجه أضعاف ما كان يشكوه أبوه وجده ، ويحار فيه الحيرة التى لا مخرج منها إلا بالفرار أو الاضطرار

هى بلوى الحرية المفاجئة بعد بلوى العدوى الاجتماعية ، وهى حالة جديدة تحتاج إلى « قاسم أمين » جديد يعالجها ويرفع المعيرة بالثورة عليها ، ولا يكون فى عمله إلا فاتح صفحة من الكتاب الخالد الذى فتح صفحته السابقة قاسم أمين قبل خمسين سنة . رحمه الله .

عباس محمود العقاد

أتريد أن تكون كذلك المسكين الذى يعرف فى قرارة نفسه أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بلا سناد ؟

ما لهذه الغاية الضئيلة خلقنا ، وما لهذا النصيب الهزيل منّ الله علينا بنعمة السمع والبصر والفؤاد

الكسل آفة سخيفة ، وهو يميت مواهبنا الذاتية ، ويمضى بنا إلى مهاوى الخمود

الكسل مذموم العواقب ، وهو من صور الموت ، لأنه أول خصائص الأموات

وأنت ياصديقى كسلان ، بغض النظر عن نشاطك فى لحظات التشكى من زمانك ، وهو نشاط المريض فى لحظات الصراخ

غيّر ما بنفسك يا صديقى ليغيّر الله ما بك ، واحذر أن تأكل رغيفاً بغير حق ، كأن تأخذ أجراً على عمل لا تؤديه أحسن الأداء

الكتاب الأسود

تسامع الناس قبل أسابيع بأن سعادة الأستاذ مكرم باشا عبيد نشر كتاباً سماه الكتاب الأسود ، وقال من قرأوه إنه غاية فى قوة الحجج والبراهين ، فدفعنى الشوق إلى الاطلاع عليه ، وأنا بلا مباهاة أقرأ جميع ما تنشر المطابع فيما يتصل بالحياة الأدبية والوطنية لأساير اتجاه الأفكار فى زماني

فماذا رأيت فى الكتاب الأسود ؟

رأيت مؤلفه اهتم بالشؤون الداخلية ، وترك الشؤون الخارجية ، فما معنى ذلك ؟

أتكون وزارة النحاس باشا سلمت كل السلامة من التقصير فى الشؤون الخارجية ونحن فى زمن تكثر فيه المشكلات الدولية ؟

إن كان هذا هو الواقع بفضل سكوت مكرم باشا فوزارة النحاس باشا أعظم وزارة تغلبت على المصاعب الدولية فى أحرج لحظات التاريخ

وإن كانت هناك مآخذ على الوزارة الوفدية من الوجهة الدولية فسكوت مكرم باشا على تلك المآخذ سكوت المريب

التعرض للشؤون الداخلية يغضب النحاس وحده . أما التعرض للشؤون الخارجية فيغضب ناساً يراعيهم مكرم فى السر قبل العلانية

ماهذه المغالاة فى تعقب الشؤون الداخلية ، مع ترك الشؤون الخارجية ؟

الجواب حاضر : فسعادة الأستاذ مكرم باشا يتوهم أن مسألة الأمور الدولية قد تنفع بعد حين ، وقد تردُّه إلى وزارة المالية بعد أحايين !

نحن نبالغ فى إيذاء المواطنين باسم الوطنية ، ونسكت عن الشؤون الخارجية باسم الديبلوماسية ، وذلك هو ما صنع الأستاذ مكرم عبيد !

هل أستطيع أن أسأل عن المصير الأخلاقى لمن يجرح قوماً عاشرهم فى أعوام تزيد على العشرين ؟

وهل أستطيع سؤال مكرم عن سر سكوته فيما يختص بمتاعب مصر من الوجهة الدولية ؟

من واجب مكرم باشا أن يقرأ هذه الكلمة ليراعيها فى كتابه المقبل . وهذا درس فى الوطنية أقدمه إليه بالمجّان

زكى مبارك كما يراه عباس العقاد

تفضل الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد فخصنى بكلمة نقدية فى مجلة الإثنين ، وهى كلمة تؤيد رأيى فى مذهبه الأدبى ... ألم أحدثكم أن منطق العقاد يستقيم فى جميع الشؤون إلا فيما يتصل بزملائه من الأدباء المصريين ؟

إن لى فى أدب الأستاذ العقاد آراء صحيحة لم تتأثر بتحامل المعاصرين بعضهم على بعض ، وقد أثنيت على أدبه فى ظروف لا تسمح بأن ينتظر منى أى ثناء ، فقد تخاصمنا وتعادينا فى آماد وآماد ، ثم كانت العاقبة أن أعترف بجهاده فى الحياة الأدبية ، وأن أذكره بالجميل حين يستأهل الجميل

قال الأستاذ عباس العقاد : « إن الدكتور زكى مبارك أقل الكتاب شخصية فى حياته الكتابية وإن أسلوبه الكتابى معروض لتوقيع من يشاء »

فبأى منطق وبأى حق يقول الأستاذ العقاد هذا الكلام الغريب ؟

هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع اسمه على كتاب « النثر الفنى » أو كتاب « التصوف الإسلامى » أو كتاب « عبقرية الشريف الرضى » أو كتاب « ذكريات باريس »

أو كتاب « اللغة والدين والتقاليد » إلى آخر ما أخرجت من المؤلفات ؟

ثم يقول الأستاذ العقاد ما نصه بالحرف :

« الدكتور زكى مبارك حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة فى باريس ، ولكنه لا يمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة باريس »

وهذا كلام يسرنى ، وإن أراد به العقاد إيذائى ، فأنا أبغض الاستعباد المعاهد والمذاهب ، وأعتقد أن أدبى سيعيش بعد أن تصبح تلك الجامعات خبراً لا تعيه ذاكرة التاريخ

زكى مبارك هو زكى مبارك كما قال العقاد ، وهي أصدق كلمة قالها العقاد ، على كثرة ما صدق فى أحكامه الجوائر على أدباء هذا الجيل

قد يقول الأستاذ عباس العقاد كما قال الدكتور طه حسين : إن شخصية زكى مبارك المؤلف قوية كل القوة ، وإنما الخلاف فى شخصية زكى مبارك الكاتب

وأقول إن هذا ظلم من الدكتور طه والأستاذ العقاد ، وأنا أتحدى هذين الرجلين بكتاب « ليلى المريضة فى العراق » فهو آية من آيات البيان

وما رأى الأستاذ العقاد فى المقالات التى أنشرها بمجلة الرسالة من أسبوع إلى أسبوع ؟ أيظنها مقالات معروضة لتوقيع من يشاء ، كما يقول ؟

مجموعات الرسالة تشهد بما أملك من قوة الذاتية ، وهى أيضاً تشهد بأن أسلوبى أقوى من أسلوبه وأبلغ ، وبأنى أحلق فى آفاق لا يصل إليها ولو استمسك بأوهام الخيال . والعقاد يعرف فى قرارة نفسه أنه لا يقدر على مجاراتى فى أى ميدان

وما رأى الأستاذ العقاد فى القصائد التى نشرتها بمجلة الرسالة ؟ هل يستطيع أن ينظم مثلها فى أى غرض !

أنا أتحداه أن ينظم قصيدة مثل قصيدة « مصر الجديدة » أو قصيدة « الأسكندرية » أو قصيدة « بغداد »

العقاد شاعر كبير ، ولكنه لا يستطيع أن يكون أشعر منى ، وله أن يحاول مصاولتى فى ميدان الشعر إن أراد

قال الأستاذ العقاد : « زكى مبارك الكاتب لا يستغنى عن زكى مبارك بحال من الأحوال ، إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم فى بعض الأحيان » .

وهذا حق وصدق ، وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية ؛ وإذا استغنى العقاد عن نفسه فأنا لا أستغنى عن نفسى ، لأنها أثمن ما أملك

أما بعد فما الذى دعا الأستاذ العقاد لمناوشتى بمثل ذلك التحامل الذى لا يليق بمن يكون فى مثل منزلته الأدبية ؟ وما عدوانه على كاتب ذكره بالخير فى أكثر ما أنشأ من المقالات والمؤلفات ؟

رأيى فى العقاد لن يتغير بأى حال ، فهو كاتب وشاعر وناقد ومؤلف ، وسأزكيه عند قرائى بلا بخل وبلا إسراف ، ولكنى أرجوه أن يتذكر أن له صديقاً يكره أن يكون من المطففين

إن كان الأستاذ العقاد رأى بفكره الثاقب أنى سأتطلف فى الرد عليه فقد صدق فيما رأى ، فما أستبيح الهجوم على رجل يحمل القلم منذ أعوام تجاوز الثلاثين ، وقد تشارف الأربعين ، أطال الله فى حياته وأسبغ عليه نعمة الصفاء

الطبيعة المصرية

وأراد الأستاذ العقاد أن يحكم بأن الدكتور هيكل كاتب لا يثب إلى الآفاق العالية ولا ينقضّ إلى الأغوار العميقة ، لجعل ذلك وفاء للطبيعة المصرية ، طبيعة الأرض التى يرويها النيل بغير عناء كما يقول

وأقول إن الطبيعة المصرية لا تعرف السهولة التى عناها الأستاذ العقاد ، وليس بصحيح أن أرض مصر يرويها النيل بغير عناء ، فهو لا يؤدى واجبه فى رى الأرض إلا بالجمة من القناطر والجسور ، ولا ينكفّ شره إلا بمتاعب ثقال

والحق أننا أسرفنا فى وصف الأرض المصرية بالاستواء ، وكدنا نوهم أنفسنا بأن بلادنا قليلة التنوع فى المناظر ، وقليلة القدرة على إبداع النقائض فى المذاهب والأراء

والعقاد مصرىٌّ من أسوان ، فما الاستواء الذى يراه فى الطريق بين القاهرة وأسوان ؟ ومتى سهل رى الأرض فى مصر وهو المشقة الأولى فى حياة الفلاحين ؟

والعقاد لا يبخل على نفسه بما بخل به على هيكل ، فهو فى نظر نفسه من الذين يثبون إلى الآفاق العالية وينقضون إلى الأغوار العميقة ، فمن أى أرض ورث الوثوب والانقضاض ؟